المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثامن والتسعين

١ مارس سنة ١٩٤١ ٣ صفر سنة ١٣٦٠

الكوفية والعقال

مقال بكر في موضوع قديم جديد

بقلم : الأب أنستاس ماري الكرملي

تعريف الكوفية والعقال

جاء في معلمة الاسلام ما هذا نقلهُ الى لغتنا في تعريف الكوفية والعقال : « الكوفية (وفي لغة سورية الكفيَّة ، على ما في معجم الأب كُوش اليسوعي ص ٥٧٧ — وبُرْكهاردت في كتابهِ تعليقات على البدو ص ٢٧ ، و ج . فُسكه في كتابهِ رحلة في الشرق ص ١٨٥) كلمة عربية ، مقتبسة من اللغات اللاتينية الحديثة [١] (فهي في الابطالية Cuffia والاسبانية Cofia ، والبرتوغالية Coifa والفرنسية Coiffe أو Coëffe) شُسْتَقة من حرير يتخذها بدو صحراء الشام عَمرةً لهم ، أولئك البدو الممتدون الى ارجاءِ مكة ، وتثبّت حول الرأس بحبلٍ أو بريم من الوبر مصبوغ بأسود ، ويوثق من فُسحةٍ الى فسحةٍ بضبّات زاهية الألوان ويسمى هذا الحبلُ عَقالاً (بالفتح ، وباللغة الفصحى عِقالاً بالكسر). وهذه الشُسْتقة كسفةٌ مربعة ، صفراء اللون أو صفراؤه وخضراؤه ، توضع على الرأس ، بحيث تقع زاوية منها الى الوراء ، في حين ان الزاويتين الأخريين تقعان على مقدم الكتفين . وهذا يستلزم أن تطوى الكسفة طيين قبل أن توضع على الرأس ، بحيث يتقوم منهما زاوية ، وهذا ما يسمَّى طرفاً حادًّا في صناعة القصارين ويستطيع لابسها بعد ذلك أن يجمع الطرفين الواقعين على الكتفين على وجههِ ليدفع عنهُ أشعة الشمس أو حرّ السموم أو المطر أو ليخفي ملامحهُ ، إنْ يحب أن يبين نفسهُ . وتتدلى خيوط الأُلحمة كل التدلي حتى تتجاوز طرف الكسفة المنسوجة ، وتفتل فتلاً كالزير فتكون لهُ تطاريف طويلة . وكانت هذه العمرة معروفة عند السلاطين المماليك في مصر

الكوفية والعقال (وهما :) الصماد والعصابة

١ . تصدير

بين الأدباء المعاصرين ، والمؤرخين ، والباحثين ، مطارحات ومطالعات ، ومجادلات لا تحصى

(١) كذا . وهذا وهم ظاهر كما سنراه في موطنه عند كلامنا على وجود الكوفية عند العرب في قديم الزمن

تتعلق بالكوفية والعقال ، ووجودهما عند العرب في سابق العهد . وقد ذهب اغلب هؤلاء الأفاضل الى ان وجودهما لا يتجاوز ثلاثة قرون في أبعد تقدير ، وألفى بعضهم هذه المدة طويلة ، فقدرها بمائتي سنة في الأكثر . وجرى حديث طويل بيني وبين احمد زكي باشا رحمه الله ، في حزيران (يونيو) سنة ١٩٢١ م ، فكان يؤكد ان ثلثمائة سنة هي أبعد مدة يمكن ان تقدر لوجودهما عند الاعراب

ثم استفاض حديث آخر بيني وبين الشيخ احمد الأسكندري رحمه الله ، وطائفة من اصفياء مجمع فؤاد الأول للغة العربية كعلي بك الجارم وأحمد بك العوامري وغيرهما — ومحصل كلامهم لا يخرج عن هذه الفكرة . ومن العبث ذكر تفاصيل هذا الحديث الذي جرى في سنة ١٩٣٧

وأما رأيي فقد كان دائماً مخالفاً لآراء هؤلاء المحققين والادباء المؤرخين ، اذ كنت اقول بأن الكوفية والعقال ، هما من ملابس الرأس عند العرب ، وكانا معروفين عندهم منذ أقدم الأزمنة ، أي قبل الاسلام وبعده ، الى عهدنا هذا . وليس الاسم هو المهم في هذا الموضوع ، انما المهم الشيء نفسه ووجوده بين جمهور الناس ، اذ الاسماء تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والقبائل ، كما هو الأمر في اسامي اشياء كثيرة كالأسد ، والجمل ، والناقة ، والخمر ، والسيف ، الى ما لا يعد ولا يحد من الأعيان والجواهر . ومثل هذا الأمر يجري في جميع لغات الدنيا

٢ — تعريف الكوفية والعقال

(الكوفية قبل الاسلام)

«كان العقال معروفاً في فلسطين بنحو تسعمائة سنة قبل المسيح» — شهادة التوراة —

لا شبهة في ان العقال كان معروفاً في فلسطين قبل المسيح بنحو تسعمائة سنة . والشاهد على ذلك ما ورد في سفر الملوك الثالث في الفصل ٢٠ والآية ٢٧ وهذا نص القصة التي تروي سبب وضع العُقُل على الرؤوس كما جاء في نسخة التوراة المطبوعة في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية :

« فهرب الاراميون ، واتبعهم اسرائيل ، فأفلت بنهدد ، ملك أرام ، على فرس مع الفرسان . وخرج ملك اسرائيل ، فضرب الخيل والمراكب ، وضرب أرام ضربة عظيمة . فتقدم النبي الى ملك اسرائيل وقال له : امض ، وتشدد ، وتأمل ، وانظر ما تصنع ، فانه عند مدار السنة ، يصعد عليك ملك أرام . وقال لملك أرام عبيده : ان آلهتهم ، آلهة الجبال ، ولذلك قووا علينا ، ولكن اذا حاربناهم في السهل فانا نقوى عليهم وانت فافعل هذا الامر : اعزل الملوك كلا من مكانه ، واجعل في أمكنتهم قواداً ، وأحص لك جيشاً كالجيش الذي سقط لك ، وخيلا كالخيل ، ومراكب كالمراكب ، فنقاتلهم في السهل ، ونقوى عليهم فسمع منهم وفعل كذلك . فلما كان مدار السنة ، أحصى بنهدد الاراميين ، وصعد الى أفيق لمحاربة اسرائيل وأحصي بنو اسرائيل ، وتزودوا ، وساروا للقائهم ، ونزل بنو اسرائيل مقابلهم كأنهم قطيعان صغيران من المعز ، والاراميون قد ملأوا الارض . فتقدم رجل الله وكلم ملك اسرائيل . وقال : هكذا قال الرب الاجل ان الاراميين قالوا : ان الرب هو اله الجبال ، لا اله الاودية ، فاني دافع الى يدك كل هذا الجمهور العظيم ، لتعلموا أني أنا الرب . فنزل هؤلاء تجاه هؤلاء سبعة أيام . ولما كان اليوم السابع ، التحمت الحرب

فقتل بنو اسرائيل من الأراميين مئة الف راجل في يوم واحد . وهرب الباقون الى أفيق الى المدينة ، فسقط السور على السبعة والعشرين الف رجل الذين بقوا ، وهرب بنهدد ، ودخل المدينة الى مخدع ضمن مخدع . فقال له عبيده : انا سمعنا ان ملوك آل اسرائيل هم ملوك رحمة . فلنشدد الآن مسوحاً على متوننا ونجعل « حبالا » على رؤوسنا ونخرج الى ملك اسرائيل لعله يستبقي نفسك . فشدوا مسوحاً على متونهم ، « وحبالا » على رؤوسهم . وجؤوا ملك اسرائيل وقالوا : ان عبدك بنهدد يقول : أتوسل ان تستبقي نفسي . فقال : أوحي هو بعد ، انما هو أخي . فاستبشر القوم وبادروا ، فتلقوا الكلمة من فيه ، وقالوا : أخوك بنهدد . فقال : هلم خذوه . فخرج اليه بنهدد ، فأصعده على المركبة . فقال له : المدن التي أخذها أبي من أبيك أردها اليك ، وتجعل لك أسواقاً في دمشق ، كما فعل أبي في السامرة . فقال : وأنا أطلقك بهذا العهد ، وقطع له عهداً وأطلقه » آه المطلوب من ايراده

فهذا نص صريح ، ذكر فيه لأول مرة في التاريخ استعمال (الحبال) أو العقل مشدودة على الرؤوس . وكان ذلك في عهد بنهدد ، الذي ملك على الإرميين من سنة ٩١٧ الى سنة ٨٨٥ قبل المسيح

ولا جرم ان المراد (بالحِبال) هنا ، ما سمّاها العرب بعد ذلك (بالعُـقُـل) (جمع عِـقال) أو باسماء أخر ، كما ستقف عليها .

زد على ذلك إن الفرنسيين اذا ارادوا اليوم الدلالة على (العِـقال) بلسانهم قالوا Tresse أي بريم أو جديل أو ضَفـر أو ضفيرة أو Corde أي حَبْـل ، او مرير او فتيل

ومعلوم أيضاً ، ان الارميين أو الأرَاميين كانوا في أيام بَنْـهَـدَد ، قوماً رُحَّلاً كأهل بادية العرب ، فكانت عاداتهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم ، كعادات الاعراب ، وأخلاقهم ، وآدابهم وكذا قُـل على أكلهم ، وشربهم ، ولبسهم ، وحلهم ، وترحالهم ، واقامتهم ، فهذا كلهُ كان متشابهاً بين القومين ، لأن الطبيعة كانت تدفعهم الى اتخاذ تلك الامور جميعها ، بصورةٍ واحدة

شهادة التصاوير القديمة

وقد ظهر في الآثار التي وجدت في ديارنا العراقية تصاوير وتماثيل منها بالعقال وحدهُ ومنها بالصِماد أو الكوفية وحدها ، ومنها بالكوفية المثبتة على الرأس بالعقـال . وعلى من يشكّ في صحة كلامنا ، ان يزور دار هذه التحف او ما يشابهها في دورالتحف الغربية كباريس ، ولندن وبرلين وغيرها ، أو أن يراجع بعض الكُـتُـب المصوَّرة التاريخية الجامعة لمثل هذه النفائس الأثرية التي تبحث عن العراق ، او الشام ، او فلسطين ، ففيها الغُـنْـية عما يودّ ان يشاهدهُ في البلاد نفسها ، اذ يرى بعيني رأسهِ تماثيل من عهد حَـمُّـربّ ، اي منذ زهاء خمسة آلاف سنة وعلى رؤوسها العُـقُـل والكوفيـات او العصائب والصُّـمُـد ، او احد الاثنين دون الآخر

وكنتُ كتبتُ الى حضرة الاستاذ الجليل والأمير العلاَّمة الخطير والبحَّاثة الشهير شكيب أرسلان ، اسألهُ عما يعرف من أمر الكوفية والعقال وعن وقوفهِ في تصانيف المؤرخين

والأدباء عليهما فكتب اليّ من صوفر (لبنان) في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٣٧ ما هذا نصهُ

« . . . ولقد كنت كتبت الي سائلا عما اذا كان عندي معلومات عن لبس العقال ، ومتى بدأ ، وأين بدأ . وكنت أنقب عن هذه المسألة الجليلة ، وأسأل اهل الذكر ، وما حظيت عنها بطائل . غير انه أخبرني أناس زاروا (تدمر) ، فوجدوا فيها نقوشاً وتماثيل من جملتها رجال على رؤوسهم الكوفيات والعقل ، فهذه التماثيل هي من قبل الاسلام بدون شك ، ومنها نعلم ان العقال في جزيرة العرب وما جاورها زي قديم وربما يرجع الى آلاف من السنين . . . » انتهى

ونحن نؤيد هذه الأقوال بما يُرى من الصور في التاريخ القديم للشرق الى الحروب المازية للعلاَّمة فرنسوى لنورمان . في المجلد ١ : ٣٠٧ صورة رجلين تورانيَّين من أهل ماذِيَة وقد لفَّ الواحد رأسه بعمامة ، وأثبتها عليه بعصابة عريضة . أما الثاني فقد لبس كوفية، وأثبتها بعصابة أيضاً لا بعقال (١) وقال المؤلف عليهما ، إنهما رأسا أسيرين من حروب ماذية وهما مصوران محفورين على قصر سنحاريب في قُويُنجُوق، وكان من الاسرى الذين يشتغلون اشغالاً شاقة في بنايات الملك . ومن المعلوم أن الحروب الماذية وقعت في المائة الخامسة قبل الميلاد

وفي ص ١٥٣ من المجلد الرابع ، صورة رجال من الاشوريين يقدمون الى ملك أشور جزية خيلاً ، ورؤوس اولئك الرجال مشدودة بعصابةٍ وهي من النقوش المحفورة التي كانت في بلاط الملك سرجون

وفي ص ٣٠٥ من ذلك المجلد عينه صورة مقسومة قسمين في القسم الأعلى منها رؤوس رجال مغطاة بقلانس مستطيلة أو بخوذٍ مرتفعة لأنهم من الجند.ورؤوس رجال القسم الأسفل منها مغطاة بكوفيات وقد أثبتت بعصائب لأنهم من الرعية أو من السوقة وقد كتب تحتها : « أشوريون يحملون الاسلاب وهم يسوقون أمامهم الاسرى والصورة من كوينجوق(بأطراف الموصل) وهي اليوم في دار التحف في لندن

وفي ص ٣٢٣ من التاريخ المذكور صورة تمثل حرباً في بلاد جبلية كثيرة الغابات وهي من بلدة نمرود (في انحاء الموصل) والمصوَّرون فيها طائفتان : طائفة الجند وطائفة السوقة . فلبوس رأس الجندي الخوذة وملبوس رأس السوقة العصابة وحدها

وفي ص ٤٢٣ منهُ صورة مغنين ومن الضاربين على آلات اللهو وهم من العبيد الأسرى . ورؤوس جميعهم معصوبةٌ عصباً

وفي ص ٧٨ من المجلد ٦ صورتان تمثل احداها صورة جندي بيده حمل وعلى جنبه الايمن

(١) François Lenormant.— His. Anc. de L'Orient. — 9; Edition.— Paris.—A. Lévy. 1881

سكين كبير . وتقابله صورة امرأة معتمة بالكوفية . وقد وجدت هاتان الصورتان في إصطخر من بلاد فارس . منهما صورتا مذيين من أهل فارس

وفي ص ١٥٠ من المجلد المذكور ترى صورة رجلين يضمان أحمالاً على بعير وعلى رأس أحدهما كوفية مربوطة بعصابة وعلى رأس الثاني قلنسوة بطرفين ينحدران على الاذنين

وفي ص ١٥٥ منهُ صورة تمثل مهاجرين من أهل آسيا ، يهبطون وادي النيل وقد اصيبت هذه الصورة منقوشة على قبر مصري في بني حسن . وفي ص ٤٣٢ منه صورة نصب حميري يمثل عرباً وقد لفوا رؤوسهم بالكوفيات ، وأمرّوها تحت احناكهم وهذا ما يسمى عند السلف بالتحنك

وان كان بين يديك (التاريخ القديم لشعوب الشرق المؤتمّ تأليف ج . ماسبرو [١]) فافتح مجلد السلطنات ٣ : ٨٧ تجد صورة قسم من جزية اسرائيل للملك سلمان أسر (أو كما يسميه العرب سلمان الأعسر) يحملها رجال قد لفوا رؤوسهم بالكوفيات وقد عقدوا أطرافها وراء رؤوسهم تلك ، ولم يشدوا عليها عقالاً . وفي المجلد ٢ : ١٥١ تجد صورة رجال سوريين وقد لفّوا على رؤوسهم عقالاً عن صورة نُقِلَت عن قبر كان صاحبهُ يطوي بساط أيامه في نحو أواخر الدولة الثامنة عشرة من دول مصر المنقرضة (أي في نحو الفي سنة قبل الميلاد)

فهذه بعض الصور التي ظفرنا بها في بعض الكتب التي ترى في خزائننا ، وهناك مصنفات لا تحصى مزينة بأحسن الصور وفيها ما يثبت كل مانقلناه أو أثبتناه وكلهُ سابق للاسلام

٣ — الكوفية بعد الاسلام

أما بعد الاسلام فلا جرم أن (الكوفية) كانت موجودة بغير هذا الاسم ، وكذلك (العقال) فان هذا الاسم محدث وقد أخذ من المشابهة التي ترى بينهُ وبين عقال البعير

(أ) الكوفية في عهد العباسيين

وأقدم نصّ عثرنا عليه يذكر (الكوفية) هو ما جاء في كتاب « رسوم دار الخلافة [٢] » لأبي الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء (المتوفى سنة ٤٤٨ للهجرة في ص ١٣١ من النسخة الخطية الأصلية) وهذا هو نصُّها : —

(١) G. Maspero.— His. Anc. des Peuples de L'Orient Classique. — Les Empires.— Paris.—Librairie Hachette et Cie 1899.

(٢) وهذا الكتاب يعده للطبع ولدي العزيز بالروح والاستاذ النابه السيد ميخائيل عواد ، وقد أغناه بتعليقات من أنفس ما جاء مثلها في هذا الموضوع وزينه بفهارس واثبات تجاوز العشرة . وسيكون بين أيدي القراء عن قريب

« لما خلع الطائع ، رحمة الله عليه ، على عضد الدولة ولقبه تاج الملة ، حمل اليه في اليوم الثالث قلنسوة وشي مذهب ، مجالسية ، وفرجية وشي ، وكوفية مثقلة . . . » وذلك في نحو سنة ٣٥٥ هـ (= ٩٦٥م)

إذن قد مضى على هذه التسمية نحو من الف سنة ومن البديهي أن الكلمة لم توضع في تلك السنة ، بل لا بد من أنهُ مضى عليها ما يقارب خمسين سنة حتى تشيع بين الناس وربما أكثر من ذلك . وجاء ذكر الكوفية أيضاً في عيون الانباء (٢ : ١٧٧) قال : « وهو شاب [والكلام على الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وكان عائشاً في سنة ٥٨٥ للهجرة=١١٨٩م] على رأسهِ كوفية وتخفيفة صغيرة » اهـ

فهذان نصّان اسلاميان قديمان يذكران الكوفية ذكراً واضحاً لا شبهة فيهِ . ومعلوم ان الكوفية تحتاج الى عِقال أو نحوه لتثبت على الرأس ولذلك كان لا بد من العقال كلما ذكرت الكوفية وان لم يذكر بواضح العبارة

(اسم الكوفية قبل الاسلام : الصماد ، واسم العقال : العصابة) — ولهما مرادفات —

قال في العين : — « صمَّد رأسهُ تصميداً : اذا لفَّ رأسهُ بخرقة ، او ثوب ، أو منديل ، ما خلا العمامة وهي الصماد » ويقال في كل من الفعل والاسم بالضاد ايضاً أي ضمَّد تضميداً والضماد والصماد في اللغة الارمية (صمادا) والمعنى واحد . وتلفظ باسكان الصاد ، وبالف في الآخر على ما هو شائع في اللغة المذكورة. واما ان العقال كان معروفاً عند قدماء العرب بالعصابة فما لا شك فيهِ ، لأسباب منها : ان صاحب التاج يقول في مادة (ع ص ب) :

« والعصابة ، بالكسر أيضاً : ما عصب بهِ كالعصاب ، بالكسر أيضاً ، والعصب قاله ابن منظور وعصبهُ تعصيباً : شدَّهُ . واسم ما شدّ بهِ العصابة ، وفي الأساس : ويقال شدَّ رأسهُ بعصابة ، وغيرهُ : بعصاب . » انتهى

ولما كان بعضهم يشدُّ رأسهُ ، أو يغطيه بالتاج أو العمامة ، توسعوا في معناه الاول الموضوع له ، وانتقلوا بهِ الى معنى التاج والعمامة . ومثل هذا التوسع يضر بمعرفة المعنى الاول ويجعل الكلم تقع على طائفة من المعاني ، فيحار القارىء في معرفة المعنى الحقيقي في العبارة الوارد فيها ، حتى انهُ ليتعذر على السامع معرفة الشيء المدلول عليهِ بذلك الحرف ، أهو المدلول الأول ، او المتوسع فيهِ ، او المدلول الثالث او الرابع اذ المعاني قد تتفرع فروعاً جمة فالغربيون مثلاً يميزون بين العصابة وبين التاج وبين العمامة فلكلٍ من هذه الالفاظ معنى غير معنى أخيه . لكن هكذا جرى الناطقون بالضاد انهم يتوسعون في معاني جميع حروفهم ، او يكاد . فقد قال الشارح :

« والعصابة ايضاً : التاج والعمامة . والعمائم يقال لها العصائب. قال الفرزدق :

وركبٍ كأنَّ الريح تطلب منهم لها سلباً من جذبها بالعصائب

اي تنقض لي عمائمهم من شدّتها ، فكأنها تسلبهم إياها . ونقل شيخنا عن عناية الشهاب في البقرة : ان العصابة ما يستر به الرأس ، ويدار عليه قليلاً ، فان زاد فعمامة . ففرّق بين العصابة والعمامة . وظاهر [كلام] المصنف : انها تطلق على ما ذكره وعلى العمامة أيضا ، كأنه مشترك وهو الذي صرح به في النهاية . انتهى كلام صاحب التاج

قلنا : والأحسن الرجوع الى المعنى الأول ، وهو أيضاً معنى اللفظة الواردة في بيت الفرزدق

ومن اسماء الكوفية أيضاً (العمامة) فقد جاء في تاج العروس في مادة (ل ث م) : « قال أبو زيد : تميم تقول : تلثمت ، وغيرهم : تلفمت . وقيل : اللثام : ردّ المرأة قناعها على انفها ، ورد الرجل عمامته على انفه ، فلو لم ترد العمامة بمعنى الكوفية لما ساغ له هذا الكلام

ومن الادلة المبرهنة على ان العصابة هي العقال اشتقاق الكلمة نفسها فانها تدل دلالة الكلمة الارمية نفسها وتلفظ عَصَوْنا وبعضهم عَصَبْتَا بمعنى العصابة أو العقال . والمادة اللغوية واحدة والاشتقاق واحد

وزد على هذين الدليلين قدم صورة العقال على التماثيل التي ذكرناها ، فان العقال مصور فيها تصويراً جلياً لا شبهة فيه ولا شك ملفوفاً لفّاً محكماً بعد ان أتقن بَرْمُهُ

وهناك دليل رابع وهو ان عرب شرقي الأردن يسمون العقال الى يومنا هذا (العصابة) وهو أبين دليل على اثبات ما نحن في صدده فقد كتب اليّ الاستاذ روكس العزيزي في أول كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٤٠ ما هذا نصه بحروفه : « ويلبسون (اي العرب) على رؤوسهم المرير [وزان كبير] وهو لباس قديم عرفه سكان البادية ، ويسميه اهل السلط وعجلون وفلسطين (العقال) . ويسمي البدو العقال (عصابة) أيضاً » انتهى

ودليلنا الخامس : ان وجود العصابة (مع اختلاف اسمائها) في جميع البلاد التي فيها بادية على رؤوس من يشدها عليها دليل بين على ان هذا الأمر لم يحدث في هذه الأيام الأخيرة ، بل هو قديم أحدثه هواء البلاد وتقلبه تقلبات اجبرتهم على ان يكون تلك العمرة مما يدفع عن اصحابها شدة الحر في الصيف ، وضرر البرد في الشتاء ويمنع الغبار من التسلل في منافذ الرأس كالعين والأذن والانف والفم ويدفع المطر عن الوجه

فاذا اجتمعت أدلة اللغة ، والتاريخ والنقل عن السلف ، والعادة الجارية في جميع الديار التي فيها بدو ، فكيف لا تكون الحقيقة على ما تسير في وجهها في هذا العصر ؟

ويزاد على كل ما تقدم ان من اسماء العقال او العصابة مرادفاته في بعض الربوع الناطقة بالضاد . من ذلك (المرير) في لسان أهل شرقي الأردن والمرير في اللغة الفصحى ما لطف من الحبال وطال واشتد فتله وهي المرائر . قاله ابن السكيت . ومثله المريرة بهاء في الآخر . ويسمي

العمانيون — وديارهم على خليج فارس — الكوفية : (المِصرّ) والعقال : (الحِزام) ويتخذونه دقيقاً كالمرير . وذكر لنا أحد الحضارمة في سنة ١٨٩٧ واسمه محمد بن الرفاع الجندي ان أهل الربع الخالي — وهم بادية لم يختلطوا بالأجانب — يسمون العقال سِبًّا ، بكسر السين وتشديد الباء ، وربما سموا به الكوفية ايضاً . وفي تاج العروس : « السِبُّ بالكسر الحبل . . . والخمار العمامة . . . » انتهى . فلقد رأينا من اسمائه في التوراة (الحبل) ، وعند أهل الحجاز والعراق وكثير من بلاد العرب (العقال) وعند أبناء شرقي الأردن (المرير) ، وعند بدو شرقي الأردن والسلط وعجلون وفلسطين (العصابة) ، و (السبّ) عند أهل الربع الخالي ، فلم تبق شبهة في ان هذه العصابة وجدت منذ أقدم الأزمنة في ديار الشرق الأدنى عند العرب الحقيقيين

(ب) الكوفية في صدر الاسلام

جاء في اللسان في مادة (ب ح ر) : « وأما حديث عبد الله بن أُبيّ ، فرواه الأزهري بسنده عن عروة : ان اسامة بن زيد اخبره : ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ركب حماراً على إكافٍ ، وتحته قطيفة ، فركبه وأردف اسامة ، وهو يعود سعد بن عبادة . وذلك قبل وقعة بدر فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمَّر عبد الله بن أُبيّ أنفهُ ، ثم قال : لا تغبروا . ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف ودعاهم الى الله وقرأ القرآن ، فقال له عبد الله : ايها المرء ان كان ما تقول حقًّا ، فلا تؤذنا في مجلسنا ، وارجع الى رَحْلك ، فمن جاءك منا فقُصَّ عليه ثم ركب دابتهُ حتى دخل على سعد بن عبادة . فقال لهُ : أي سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حُباب ؟ — قال : كذا — فقال سعد : اعفُ واصفح ، فوالله ، لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد أصلح أهل هذه البُحَيْرة [أي يثرب] على أن يتوّجوهُ ، يعني يملكوه فيعصبوه بعصابة . فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شرق لذلك فذلك فعل بهِ ما رأيت فعفا عنهُ النبيّ صلى الله عليهِ وسلم » آه

فقول الراوي « خَمَّر عبد الله بن أبيّ انفه » دليل على أنهُ كان على رأسهِ الصماد ، حتى استطاع أن يخمر أنفه بطرفهِ ، على مألوف مايفعل كل من يلبس الكوفية فانهُ يخمر أنفهُ اذا قابلهُ غبار أو عجاج . وفي قولهِ : « يملكوه فيعصبوه بالعصابة » دليل على أن العصابة أو العقال كان من ملابس كبار العرب ، ثم امتدَّ استعمالهُ الى جميع أهل البادية لحاجتهم اليهِ

ويزاد على ذلك : أن الرومان اتصلوا بالعرب من جهتين : من جهة الحجاز ، فكان لهم هناك كورة عرفت بعربة الحجرة Arabia Petraea ومن جهة العراق في أيام لوقلس وبنبايوس أي قبل الميلاد بنحو سبعين سنة . فكان اتصالهم هذا بابناء اسمعيل دافعاً الى أن يأخذوا منهم بعض أمور خاصة بهم فكان من جملتها الكوفية وسموها في لغتهم Cofea أو Cuphia وسماها الايطاليون Cuffia أو Scuffia وقد وردت اللفظة اللاتينية في كلام الأسقف فرتناتس

Fortunatus المتوفى سنة ٦٠٠ للمسيح أي قبيل الهجرة باثنتين وعشرين سنة

ووردت بعد ذلك مبنىً ومعنىً في كلام ألكوين Alcuin الانكليزي ، اللاهوتي الشهير ، والشاعر الكبير ، والعلامة المنقطع النظير ، المتوفى سنة ٨٠٤ للميلاد . وكان أحسن من يتقن صنعها في عهد العباسيين أهل الكوفة ، فاجتمع في اللفظة أمران : معنى التكوُّف وهو استدارتها على الرأس ، وصُنعها في الكوفة ، فشاعت حينئذٍ هذه الكلمة ، وقتلت كل لفظة سواها

ومن الغريب أننا قرأنا في كتاب الملابس لدوزي هذه العبارة التي تنقلها الى لغتنا

« ولا أظن ان أحداً يذهب الى ان للكوفية أصلا عربياً . أما أنا فأذهب الى ان الكوفية ليست الا Cuffia (كفية) الايطالية ، و Cofia (كوفية) الاسبانية ، و Coiffe [كواف] الفرنسية ، و Coifa [كوافة] البرتغالية . وأذهب أيضاً الى ان الشرقيين استعاروا هذه الكلمة من الايطاليين ، وكانوا في العصور الوسطى يتاجرون في موانىء مصر وسورية وينقلون الصليبيين » انتهى

قلنا : ويردّ هذا الرأي اولاً : تصاوير الأقدمين على الحجارة المبثوثة في ديار الشرق الى يومنا هذا وذلك قبل وجود لغة الايطاليين على الأرض . وثانياً ان الكلمة الايطالية مأخوذة من اللاتينية المولَّدة Cofea أو Cuphia وهذه لا تتصل بمادة أصيلة فيها ، انما هي لقيطة فيها ، فهي من اللغة العربية ، وقد اقتبسها الرومان منهاحين كانوا متصلين بالعرب من جهة الحجاز ومن انحاء الفرات ، وكانت هذه العمرة شائعة يومئذٍ في جميع الديار العربية . ولهذه المادة في لغتنا معنى يؤيد اشتقاقها ، وهو معنى التكوُّف أي الاستدارة لاشتمالها على الرأس والرأس مستدير ولاحاطتها بهِ كل الاحاطة ومن كل جانب . قال السيد مرتضى : « والكوفية : ما يلبس في الرأس ، سميت لاستدارتها »

عقال العربيات يسمَّى النوفلية

جاء في تاج العروس : « النوفلية : شيء من صوف يكون في غلظٍ اقلَّ من الساعد ، ثم يحشى ويعطف ثم تختمر عليهِ نساء العرب . نقله الازهري » اه

فيؤخذ من هذا الشرح ان النوفلية شيء يشبه عقال الرجال إلاَّ انهُ متين ومحشوٌّ صوفاً لكي لا يثقل على الرأس . وقد كنت كتبت في سنة ١٩٣٨ رسالة من القاهرة الى الاستاذ الجليل عبدالله مخلص في القدس ليسأل الشيخ كاظم الدجيلي قنصل العراق هناك وهو من الواقفين اتمَّ الوقوف على آداب وأخلاق الاعراب وأهل البادية عما يعرف عن العقال الذي تتخذه بدويات العراق ، فأجابني الأستاذ المخلص بما يأتي :

« . . . وقد زرته وحدثته بما أردت وسألته عن العقال الذي تلبسه نساء البدو في العراق ، فذكر لي ما أدونه لكم باختصار

« نساء شمر ، وعنزة ، والضفير ، وربما بعض نساء زوبع يشددن على رؤوسهن العقال ، وطوله نحو

ثلاثة امتار ، بحيث يلف على الرأس ثلاث او أربع لفات ، وفي طرفيه عثكولان يتدليان من الخلف ، وفي وسط الرأس عقدة ، او ما يسمونه ضبة

« وهو كما ترى من نوع العقال الذي يستعمله الرجال ، الا ان لفات او طيات العقال الذي تستعمله نساء العراق اكثر . وعلى ذكر العقال ، أقول لكم ان العرب في فلسطين مسلمهم ونصرانيهم قد لبسوا العقال ، ونبذوا الطربوش ، وتراني الآن اضع على رأسي كوفية بيضاء ، وعقالاً أسود من المرعزى كاعرابي من البادية » آه

وحضر الشيخ كاظم الدجيلي في بغداد وكنت ايضاً انا فيها في نحو اواخر ايلول (سبتمبر) من سنة ١٩٣٨ فقال لي بحضور جميع الأدباء الذين كانوا مجتمعين في مجلسنا يومئذٍ ، ما هذا روايته :

« العربيات اللواتي يتخذن ضربا من العقال ، اي النوفلية ، هن عربيات الصائح ، وعنزة ، وشمر ، والضفير، وقد قل الآن استعمالهن له، وبقي محصوراً في نساء الشيوخ، والوجيهات من سائر الاعرابيات » آه

وكنت سألتُ مثل هذا السؤال الأستاذ الدكتور مصطفى جواد وهو في باريس ، فكان جوابه ما أرويه بحروفه :

« ان الذي رأيتموه على رؤوس البدويات نوعان : نوع من جنس العقال الذي يتخذه الرجال ، ونوع يسمى جمجة أي كعكة ، يتخذه النساء الربعيات ، اي المعيديات ، تهويناً لثقل ما يحملن على رؤوسهن من قصاع اللبن والرائب . وكلاهما مألوف معروف

« فأما العقال فعند اكثر البدويات الرواحل . وأما الكعكة فهي شيء اضطرت الحاجة اليه ، فلا يدخل في أبواب العقال . فالعقال هو الرفيع . والجمجة ثخينة) آه

وسألتُ الأستاذ عبد الله مخلص ان يبدي لي رأيه بخصوص عقال النساء فكتب اليَّ من القدس بتاريخ ٣١/٨/١٩٣٨ ما هذا نصه :

(أما لباس الرأس الذي يشبه العقال ، وهو كما وصفتم من جهة شكله ، وحشوه بمادة من المواد ، فيسمى هنا (في فلسطين) صمادة . وهو خاص بالنساء . الا ان هذا اللباس لا يدار على الرأس كالعقال ، بل يوضع فوقه ، فيتدلى من الجانبين ، حتى يصل الى الاذنين . وله خيط يربط به من تحت الحنك يسمى (محنكة) او (زناق) ويخاط على دائر الصمادة مسكوكات فضية ، قديمة ، مجوفة ، حتى يركب بعضها بعضاً ، فتتراص وتنسجم . و (الصمادة) هنا غير (الصماد) الوارد في كتب اللغة . وكذلك القول على (المحنكة) و (الزناق) اه كلامه

فيؤخذ من هذا كله أن العقال ، أو ضرباً منهُ ، معروف الى اليوم عند البدويات ، على حدّ ما كان معروفاً في سابق العهد ، إلاَّ انهُ آخذ بالزوال شيئاً بعد شيء وفي جميع بلاد الشرق الأدنى التي فيها بادية . وقد ذكر بُرْكارْدْت أنَّ نساء اعراب الرولة يعتممنَ بعمائم من حرير اسود ، طول الواحدة ذراعان مربعتان ويسمونها (شال خاص) وتعمل في دمشق ، وكثيراً ما تزين بخيوط من ذهب أو فضة » اه

اختلاف اسماء الكوفية باختلاف البلاد والأزمان

مرَّ بنا ان الكوفية لم تكن دائماً معروفة بهذا الاسم ، فقد رأينا انها سميت في سابق العهد بالصِماد والضماد ، ثم انتقل الى لفظ الكوفية في عهد العباسيين ، ثم اختلفت اسماؤها باختلاف

المادة المتخذة منها ، او باختلاف ألوانها . وقد يختلف أهل البلد الواحد في التلفظ بالكلمة الواحدة نفسها لأن الجميع لا يتفقون على النطق بالحروف على وجه واحد وجمع الكوفية الكوافيّ

والكوفيَّة يلفظها العراقيون الكفيَّة أو الچفيَّة ، لأنهم يلفظون الكاف چافاً معقودة مثل ch في الانكليزية Change ويكسرونها ، ويليها فاء مشددة مكسورة ، ويعقبها ياء مشدَّدة مفتوحة ، وفي الآخر هاء . ويجمعونها على چَفافيّ وزان كراسيّ . وهم يريدون بها أيضاً معنى آخر ، ولاسيما أهل المدن منهم ، فانهم يطلقونها على المنديل الذي يمخطون فيهِ ، اي الشستقة ، وعلى المَشُوش وهو ما يتمسح بهِ من المناديل . وأهل نجد يسمون اليوم الكوفية الحمراء (مَحْرَمَة) وحركة الميم والراء بين الفتح والكسر . واذا كانت بيضاء فيسمونها (غُترة) بضم الغين ، او بحركة بين الكسر والفتح ، وتكون من القطن . والعراقيون من أهل البادية يسمون الكوفية (الحلالية) بتحريك الحاء واللام وكسر اللام الثانية وتشديد الياء . وهذا اذا كانت من قطن . اما اذا كانت من قز فيسمونها (قزية) ويلفظونها (جزّية) بفتح الاول وتشديد الثاني المكسور يليها ياء مشددة مفتوحة . والقزّ ضرب من الابريسم او الحرير ، إلاَّ انهُ دون الحرير حسناً

ومن اسماء الكوفية عند أهل نجد (الدّسمال) او (الدّسمالة) بدال مفتوحة وبعضهم يكسرها . وهم يخصون بذلك الكوفية الحمراء الخالية من كل نقشٍ بارز وهي غير الشماغ أو اليشماغ وغير الشال وغير الغُترة وربما كان الدسمال مخططاً أحمر وأصفر ، ويجمعونها على دَساميل

والكلمة فارسية الأصل منحوتة من (دسْت) أي يد . و (مال) اي يُمسح او يمشّ والمعنى ما يمسح به اليد . لان العرب لا يتخذون شستقة يمخطون بها ، بل يمشون أيديهم ويمسحون وجوههم بطرف الكوفية ايًّا كانت

(والشماغ) ككتاب أو (اليشماغ) بعضهم يجعل القاف في مكان الغين في اللفظين المذكورين ويجمعونها على يشاميغ كلمة تركية هي في هذه اللغة ياشمق أو ياشماق . برقع خفيف تتبرقع بهِ التركيات ، ثم اطلق على كل سِتر أو لثام أو نقاب أيًّا كان ، لكن أهل نجد وبعض العراقيين يسمون بهِ كوفية تتخذ من القطن وفيها نتوءات بخيوطٍ حُمر أو زرق ، ويكون اليشماغ مربعاً ، فيطوى طيًّا مخالفاً بين أطرافهِ ، فيصبح كالزاوية الكبيرة المستقيمة الزوايا أو الكُوس فتوضع على الرأس بتحكيم وسطها عليهِ ثم يربط عليها العقال

اما اذا كانت الكوفية حمراء اللون متخذة من الصوف لا من القطن فيسمونها (الشّال) من باب التوسع في معاني الالفاظ . ومعلوم أن الشال في الأصل : « هذا الرداء الذي يعمل بكشمير ولاهور ويجلب بهِ (كذا) الى البلاد يقال انهُ من وبر الجمل . سمي بهِ لانهُ يرفع على الاكتاف . ان كانت عربية والجمع شيلان وشالات » اهـ عن التاج

قلنا : ليس الشال من كلام العرب ، بل من لسان الفرس وهو عندهم من الثياب يتخذ من الصوف ، خشن الصنع ، يلبسهُ فقراؤه وبهِ سمي الثوب الذي يصنع في كشمير ، ولاهور ، وفي تلك الارجاء ويكون من شعر المعزى أو من وبر الجمال أو من صوف الغنم

اما اذا كانت الكوفية من القطن الابيض فيسميها أهل نجد (غُترة) وزان غرفة ، وكان يسميها أهل العراق قبل نحو مائة سنة (الضريبة) والاسم مأخوذ من (الضريب) (1) وهو الثلج لبياضها الخالص ، وتكون من حرير أبيض وربما سموها (ضريباً) بلا هاء . واذا كانت تلك الكوفية من الحرير المشطب أو المسيح أو المقلم فكانوا يسمونها (الساعورية) ، ولعلَّ سبب هذه التسمية ان اغلب هذه الشطب او الخطوط الممتدة فيها ، صفر بلون النار وهي الساعور

هذا بعض ما وجدناه من اسماء الكوفية بحسب بعض البلدان ، ولا جرم ان هناك غير هذه الالفاظ

اختلاف اسماء العقال باختلاف البلدان العربية

قد بينا في ما تقدم من كلامنا ان اول أسماءِ العقال : (الحبل) على ما ورد في سفر الملوك من أسفار التوراة ، لأنهُ هو حقيقة حبلٌ لا غير والذين نقلوا التوراة الى لغات مختلفة لم يسموه الا باسم يدل على الحبل ، فهو باليونانية Kamilos وفي اللاتينية Funiculus وفي الأرمية (حَبْلا) وفي الحبشية (حبْل) الى غيرها من اللغات

ولهذا كان من أسمائهِ العربية في البلاد الضادية اللسان تدل كلها على مثل هذا المعنى . فمن أسمائهِ الأولى عند العرب (العصابة) . قال في التاج (العصابة) بالكسر : ما عصب بهِ (كالعصاب) بالكسر أيضاً والعصب . قالهُ ابن منظور . وعصَّبهُ تعصيباً : شدَّهُ واسم ما شدَّ بهِ العصابة » آه . وهو الاسم الشائع اليوم في شرقي الأردن وأنحاء فلسطين

ومن أسمائهِ في تلك الربوع (المربر) . فراجعها في ما تقدم من كلامنا

والمربر هذا يسمى في عُمان [من ديار خليج فارس] خزاماً . وقد تقدم الكلام عليه ايضاً

هذا ما استطعنا أن نجمعه من الافادات لاثبات ان الكوفية والعقال من أقدم ملابس الرأس عند العرب ويصعب على منكرها ان يهدم هذه الادلة ، اللهمَّ الاَّ اذا كان سيء النية . لا يقنعه وجود الشمس في رائعة النهار

بغداد

---

(1) وصف الضريب الذي رأيناه عند الصديق المصري البحاثة السيد يعقوب نعوم سركيس هي خرقة طولها نحو متر و ٣٠ سنتيمتراً ، في عرض متر و ٢٠ سنتيمتراً ، ورقعتها صفراء ، وفي طرفيها ووسطها علم (أي خط عريض أحمر بعرض ١٥ سنتيمتراً ، يتوسطه خط أصفر بعرض نصف سنتيمتر) ثم يتلو كل علم أحمر من هذه الاعلام الثلاثة خطان أصفران يفصل كل واحد عن أخيه خط أصفر عرضه نحو نصف سنتيمتر . وينتهي العرض من الطرفين بخيوط مبرومة عدد ٣٦ من كل جهة وكان هذا الضريب مصنوعاً في بغداد قبل زهاء خمسين سنة ، متين النسج حسن الالوان يدل على مهارة الحائك والصابغ معاً